

دلائل الإعجاز

بأجزاءٍ بيّشةٍ غَدَّ تَنِي وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُغَادِي صِرْمَةً غَادِي وَلَوْ شِئْتَ أَنْ تَعُودَ بِلَادَ
نَجْدٍ عَوْدَةً عُدَّ تَهَا أَذْهَبْتَ الْمَاءَ وَالرَّوْنَقَ وَخَرَجْتَ إِلَى كَلَامٍ غَثٍّ وَلَفْظٍ رَثٍّ .
وَأَمَّا قَوْلُ الْجَوْهَرِيِّ - الطويل - :
(فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُ الشَّوْقُ غَيْرَ تَفَكُّرِي ... فَلَا وَ شِئْتُ أَنْ أَبْكَيَ بِكَيْتِ
تَفَكُّرًا) .

فقد نحا به نحو قوليه : وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكَيَ دَمًا لَبَكَيْتَهُ فَأَطَهَرَ مَفْعُولَ شِئْتُ وَلَمْ
يَقُلْ : فَلَوْ شِئْتُ بِكَيْتِ تَفَكُّرًا لِأَجْلِ أَنْ لَهَ غَرَضًا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِذِكْرِ الْمَفْعُولِ
وذلك أنه لم يُرَدَّ أَنْ يَقُولَ : وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكَيَ تَفَكُّرًا بِكَيْتِ كَذَلِكَ . ولكنه أرادَ أَنْ
يقولَ : قَدْ أَفْنَانِي النَّحُولُ فَلَمْ يَبْقِ مِنِّي وَفِيَّ غَيْرُ خَوَاطِرَ تَجُولُ حَتَّى لَوْ شِئْتُ
بِكَاءٍ فَمَرَيْتُ شُؤُونِي وَعَصَرْتُ عَيْنِي لَيْسِلَ مِنْهَا دَمْعٌ لَمْ أَجِدْهُ وَلَخَرَجَ بَدَلَ الدَّمْعِ
التَّفَكُّرُ . فالبكاءُ الذي أَرَادَ إِيقَاعَ المَشِيئَةِ عَلَيْهِ مطلقٌ مُبْهِمٌ غَيْرُ مُعَدِّي إِلَى
التَّفَكُّرِ البِتَّةِ والبكاءُ الثاني مَقِيدٌ مُعَدِّي إِلَى التَّفَكُّرِ . وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ
صَارَ الثاني كَأَنَّهُ شَيْءٌ غَيْرُ الأَوَّلِ وَجَرَى مَجْرَى أَنْ تَقُولَ : لَوْ شِئْتَ أَنْ تُعْطِيََ دَرَهْمًا
أَعْطَيْتَ دَرَهْمِينَ . فِي أَنْ الثاني لَا يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا للأَوَّلِ .
وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا لَيْسَ بِصَرِيحٍ : " أَكْرَمْتُ وَأَكْرَمْنِي عَبْدُ اللَّهِ " وَلَكِنَّهُ شَبِيهُ
بِهِ فِي أَنَّهُ إِزْمًا حُذِفَ الَّذِي حُذِفَ مِنْ مَفْعُولِ المَشِيئَةِ وَالإِرَادَةُ لِأَنَّ الَّذِي يَأْتِي فِي جَوَابِ
" لَوْ " وَأَخَوَاتِهَا يَدُلُّ عَلَيْهِ .

وَإِذَا أَرَدْتَ مَا هُوَ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ ثُمَّ هُوَ نَادِرٌ لَطِيفٌ يَنْطَوِي عَلَى مَعْنَى دَقِيقٍ وَفَائِدَةٍ
جَلِيلَةٍ فَانظُرْ إِلَى بَيْتِ البَحْتَرِيِّ - الخفيف - :
(قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْدَدِ ... وَالمَجْدِ وَالمَكَارِمِ مِثْلًا) .
المعنى : قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلًا ثُمَّ حُذِفَ لِأَنَّ ذِكْرَهُ فِي الثاني يَدُلُّ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّ
لِلْمَجِيءِ بِهِ كَذَلِكَ مِنَ الحُسْنِ وَالمَزِيَّةِ وَالرَّوْعَةِ مَا لَا يَخْفَى . وَلَوْ أَنَّهُ قَالَ : طَلَبْنَا
لَكَ فِي السُّؤْدَدِ وَالمَجْدِ وَالمَكَارِمِ مِثْلًا فَلَمْ نَجِدْهُ لَمْ تَرَ مِنْ هَذَا الحُسْنِ الَّذِي تَرَاهُ
شَيْئًا . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي هُوَ الأَصْلُ فِي المَدْحِ وَالمَغْرَضِ بِالحَقِيقَةِ هُوَ نَفْيُ الوجودِ عَنِ
المِثْلِ . فَأَمَّا الطَّلَبُ فَكَالشَّيْءِ يُذَكَّرُ